زفاف بوران الى المأمون

للأستاذ محمد طه الحاجري

سرى الخبر فى بغداد أن أمير المؤمنين المأمون قد أزمع البناء على بوران بنت الحسن بن سهل . ولقد طالما كان البغداديون يتنظرون هذا الخبر ، ويستشرفون له ، ويمنون أنفسهم بمظاهر الفرح الشامل ، والطرب الكامل ، تغمر الجو من حولهم ، ويتجردون فيها من همومهم ، ويمسحون بها على ما بقى من آثار الفتن الماضية فى ذكرياتهم . فما إن انبعث ذلك الخبر حتى سرى فى بغداد كلها ، وأصبح حديث القوم الشهى إلى أنفسهم ، الحظىّ عند أخيلتهم ، وانتشر فى المدينة جو من السعادة والغبطة جدير ببغداد الطروب

ثم علم القوم أن أمير المؤمنين قد أجمع على أن يتم على الحسن تكرمته ، ويبالغ فى ملاطفته ، فيجعل الزفاف فى بيته ؛ وأنه منحدر فى دجلة إلى ضيعتـه فى « فم الصِّلح » حيث يقيم ؛ فتهيأت بذلك الفرصة السعيدة لنفوسهم المرحة ، فأخذ كثير من فتيان بغـداد وسرواتها يعدون العدة للخروج فى موكب الخليفة . فما جاء موعد الخروج حتى كانت دجلة تموج بالسفائن والزوارق من شتى الأشكال ، وقد ركبها ألفاف من الناس من مختلف الطبقات : فهؤلاء من أهل اليسار والنعمة ، قد نضدت لهم الفرُش ، ووفرت لهم أسباب الترف ، ووسائل الطرب ، من قيان مثقفات ، ودفوف وعيدان ، وما إلى ذلك . وأولئك من أهل الحرفة ، فهم يلتمسون النجعة ، ويرجون التوسعة ، ويأملون أن ينالهم من ذلك الفيض الفياض ما تثلج له صدورهم

ثم نزل المأمون من قصر الخلافة ، وحوله أصفياؤه وأصحابه إلى السفينة المعدة له ، واتخذ مكانه فيها . وسارت السفينة جنوباً تتهادى فى سيرها ، ومن ورائها تلك السفن والزوارق ، تنطلق منها نغمات العيدان ، وأصوات القيان ، حتى امتلأ جو دجلة مرحاً ونشوة

وكان يسير بإزاء ذلك الموكب النهرى الجميل الذى يمثل النزعة الفنية البغدادية ، موكب رائع رهيب يمثل القوة العسكرية العباسية ، يتألف من قواد الدولة وأجنادها ، وقد ركبوا خيلهم وأخذوا سلاحهم وارتدوا أروع ثيابهم ؛ وسار على رأسهم العباس ابن المأمون ؛ وهكذا أخذ الخليفة طريقه إلى دار صهره .

وكان الحسن بن سهل قد ترك بغداد فراراً بأعصابه الرقيقة من زحمتها العنيفة ، وأبعد فى جنوبها حيث يطيب الهواء ويسود الهدوء ؛ فاتخذ له قصراً ومعسكراً فى بقعة هادئة جميلة ، عند « فم الصِّلح » إلى شرقى دجلة : يشرف عليه الجبل من شرقيه ، وتجرى دجلة إلى غربيه ، وينساب نهر الصِّلح فى شماله ، وتضطرد من حوله الكروم والبساتين ، وتنفح عليه الأزهار والرياحين .

ولما علم الرجل أن أمير المؤمنين قد أزمع تشريفه فى داره للبناء على ابنته استطار فرحا ؛ ثم ما لبث ذلك الفرح أن أخذ يعبر عن نفسه تعبيرات فنية رائعة تجلت فى قصره الذى أخذ يتأنق فى تزيينه ، حتى صار فتنة للناظرين ، ويبالغ فى تأثيثه ، ليكون جديراً باستقبال الخليفة فيه . وكان مزاجه الشعرى يملى عليه بعض الصور الشعرية الرائعة التى كان يخترعها الخيال الفارسى المترف ، والتى كانت موضع الإعجاب فى ذلك العصر ، فيسرف فى تمثيلها ، ويتأنق فى تصويرها ، كتلك الصورة التى اخترعها الحسن بن هانىء ، وافتتن بها أهل عصره :

كأن صغرى وكبرى من فواقعها حصباء در على أرض من الذهب

فلم يأل فى ذلك جهداً ؛ ففرش القاعة الكبرى التى أعدها لاستقبال المأمون ببساط نسيجه من خيوط الذهب ، وقد تناثرت فوقه حبات اللؤلؤ ؛ وهو يتألق ويمج الأشعة فى أضواء الشموع ، وأى شموع ! إنها شموع مصنوعة من العنبر ، تسطع بالنور وتنفح بالعطر ؛ فجعل كل ذلك يبعث فى القاعة جواً سحرياً أخاذاً ، تسبح به الروح فى أحلامها ، وكأنما ترى فيه صورة من الجنة وأخيلتها .

وأما الطريق ما بين القصر ودجلة فقد مهّد وحف بما شاء الخيال المترف أن يحف به من زينة أخاذة . وقد أقام الحسن فى طرفه على شاطئ النهر جوسقاً جميلا ، نضدت فيه الفرش ، وأعد لاستقبال العباس بن أمير المؤمنين . وكان الحسن فى ذلك اليوم

الموعود جالساً فى ذلك الجوسق ينتظر ، حتى وصـل الموكب العسكرى يقدم موكب الخليفة ، فاستقبله الحسن وإن وجهه ليطفح بشرا ، ثم مضى به إلى القصر ، ولم يمض قليل حتى وقفت سفينة الخليفة على باب الحسن فى نهر الصلح ، فقام إليـه الرجل وهو لا يكاد يكاتم سروره بما أفاء عليـه الخليفة من شرف يقصر عنه كل شرف ، بزواجه ابنته ، وتشريفه بيته

وأمضى المأمون ليلته فى سمر وطرب ، وكانت «فم الصِّلح» تموج بالوافدين عليها من أهل الدساكر والقرى ممن جاءوا يشهدون المهرجان العظيم ، فضلا عمن كانوا فى موكب الخليفة من البغداديين بين أصوات المزاهر والقيان تشق أجواز الجو ، وتملؤه بأسمى مظاهر البهجة والهناءة . وقد شاء المأمون أن يمد فى أسباب الفرح لهـذه الأسرة ، وأن يربط بين القلوب فيها ، فأمضى في الليلة التاليـة زواج محمـد بن الحسن بن سهل بابنة عمه العباسة بنت الفضل

فلما كانت الليلة الثالثة كان زفاف بوران إلى المأمون . وكان زفافاً اقترن بمظاهر النبل العربى والترف الفارسى ؛ واجتمعت لديه عظمة المأمون وكرم الحسن ، وكان مبعث بركة على الأسرة العباسية وعلى رجالات الدولة ، وعلى أهل الحرفة ، وذوى البؤس والمسكنة

فقد ذكروا أن المأمون أذن في هذه الليلة للسيدة زبيدة أن تؤدى حجها ، وكانت ممنوعة منه ، وكان هذا المنع أثراً من آثار الفتنة التى كانت قائمة بين المأمون وابنها الأمين

كما عفا عن ابراهيم بن المهدى ، وكان أسيراً لديه ، بعـد الثورة التى ثارها عليه ، محاولاً انتزاع الخلافة لنفسه ؛ ثم خلع عليه ، وقلده سيفه ، ورد إليـه ماله ورفع مكانه ، وأتاح للأدب العربى أن يظفر بأمتع ما قاله شاعر فى الشكر العميق والاعتراف بالجميل

وهكذا مسح على قلوب أسرته فشفى جراحها ، واستل ما كان قد بقى عليه من حفائظ فيها . وما أمجده عملا إنسانياً كان ذلك الزواج الانسانى النبيل مثاره ومبعث خيره

وأما الحسن فقد كان مضرب المثل فى الحفاوة والترف فقد بالغ فى ذلك مبالغة الرجل يرى كل شىء من ذلك قليلا فى جانب ما يشعر به ، وما يحسب أنه قد ناله ؛ فاستوقف أنظار الناس بإسرافه ، حتى أصبح موضع أحاديثهم ، ومثار عجبهم وتعجيبهم ، ومن صور ذلك الاسراف شمعة عنبر أوقدها ليلة الزفاف ، تزن أربعين منا ، أى ثمانين رطلا أو تزيد ، وقد أقامها فى « تَوْر » من الذهب ، مبالغة فى السرف ، حتى لم يفت المأمون فيما قالوا أن يلاحظ هذا ويأخذه عليهم . وحسبك هـذا المثل وما تقدم لتتصور مقدار ما بلغ إليه الترف فى هذا الزفاف البديع

كما أقام الولائم الفخمة لكل من كان هنالك من قواده وعساكره ، ورجال المأمون وحاشيته ، ثم تلك الجموع الحاشدة التى اجتمعت للمشاركة فى الفرح ، والتى يكفى للدلالة عليها أن نذكر أن طائفة الملاحين فيها كانت تبلغ نيفاً وثلاثين ألفاً ، وقد ظل كل يوم يجددها ويفتن فيها ، وقد أحاطها بكل مظاهر الجمال والفرح ، كما كان لا يفتأ يخلع على القوم شتى الخلع ، حتى عاد المأمون إلى بغداد بعد أن قضى هنالك سبعة عشر يوماً ، كان مبلغ ما أنفق فيها على ما يقول الطبرى وابن الطقطقى وغيرهما خمسين مليوناً من الدراهم

أما هباته فى تلك المناسبة السعيدة ، على القواد ومن إليهم من أمراء الهاشميين ، فقد كانت بدعاً فى أسلوبها ومقاديرها ، غاية فى الكرم والأريحية ، تضمن لأصحابها الثراء الدائم ، فقد كتب رقاعاً بأسماء طائفة من ضياعه ، ثم وضعها فى بطاطيخ من العنبر ، ونثرها عليهم ، فكل من وقعت فى يده رقعة باسم ضيعة بعث فتسلمها ، ملكا خالصاً له ، وتذكاراً بليغ الأثر فى حياته لذلك الزواج الميمون

وحين أزمع المأمون المسير بزوجه إلى بغداد بعث إليه بعشرة ملايين درهم ، فما حملت إليه حتى ثارت به أريحيته فأخذ يفرقها فى قواده وأصحابه ، وخدمه وحشمه ، ثم مضى مع الخليفة يشيعه وعاد بعدها إلى داره قرير العين مطمئن الضمير

وأما بوران فقد مضت مع زوجها العظيم ونزلت دار الملك والخلافة ، فكانت درته اللامعة ، بجمالها الفتان ، وذوقها المرهف وذكائها الوقاد ، ومعرفتها الواسعة ، وأدبها العظيم

ولقد ظل زواج المأمون ببوران غرة فى التاريخ الاسلامى ، بما قام عليه من أشرف معانى الوفاء والرعاية ، وما اقترن به من أعظم مظاهر النبل ، وأبهر دلائل الكرم والأريحية

محمد طه الحاجرى